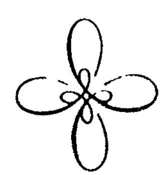


انتحار خليل حاوي في بيروت وثقافة الانتحار

محمد علي شمس الدين

«خليل حاوي اصطاد، أمس، أجمل غزلانه المجنونة. وكان ذلك في بيروت. أطلق الشاعر «جفت» الصيد على نحره الشخصي، ومات. . . . . في فجر السادس من حزيران ١٩٨٢».

ـ من مفكرة شخصية ـ

● **المشهد الثقافي العربي المعاصر بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان حادثة ارتكاز**

يقول خليل حاوي في سدوم: «أمسي احتراق
واحتراق غدي
. . . . .
. . . . .
يحترقُ الترابْ
يحترق الحجرْ
يحترقُ السحابْ».

ليس أفضلَ من اختيار الاجتياح الإسرائيلي للبنان في الخامس من حزيران ١٩٨٢ كحادثة ارتكاز لتصوير المشهد الثقافي العربي اليوم. فالمشهد الثقافي قلق، تائه، ومحترق. والافتراس العسكري الإسرائيلي الذي حدث للأرض والناس، في تلك الأيام الصعبة، كان مظهراً عسكرياً لافتراس آخر ثقافي سابق عليه، ومصاحب له، ظهرت فيه الثقافة العربية، وهي تتحرك على مرأى ومرمى من البندقية الإسرائيلية، قابلة للإصابة والموت. ومن قال إنّ الحرب عسكر وسلاح، لا أكثر، فالحرب ثقافة أيضاً. بل الحرب هي الثقافة.

في أحد تلك الأيام، انتحر الشاعر اللبناني المعروف خليل حاوي، بإطلاقه النار من «جفت صيد» كان يملكه، على عنقه، في منزله الكائن في بيروت، قبالة مبنى الجامعة الأميركية التي كان يدرّس الفلسفة.

ليس في الإمكان اعتبار انتحار خليل حاوي حادثاً شخصياً، مهما كانت المبررات لمثل هذا الاعتبار. صحيح أنّ الرجل كان عصابياً، وأنه كان شديد التوتّر، أو كما يقول المتنبي «على قلقٍ كأنّ الريح تحتي»، وأنّ مزاجه الحادّ ووسواسه كانا يشكلان أبرز صفاته الشخصية، وصحيح أن تلك المحاولة الأخيرة في انتحاره، لم تكن هي الأولى، فقد سبقتها محاولات عديدة أخرى، في أوقات سابقة. . . ولكنّ الصحيح أيضاً، هو أن خليل حاوي، الصافي كطفل، كانت تنعكس على صفحة عينيه الرجراجتين كالزئبق، هموم جماعة بشرية مهدورة هي شعبه وأمته، وهموم حضارة عربيّة مهدّدة بالانقراض، هي حضارته.

● **ذكريات ومواقف**

غالباً ما كنّا نتمشّى معاً في أروقة الجامعة الأميركية في بيروت، أو في الطرق المشجّرة المطلّة على البحر، أو

نجلس في أحد مقاهي الحمرا ونتجاذب أحاديث الشعر والبلاد. وكنت أحبّ خليل حاوي حباً خاصاً، وكان يعرف هو ذلك، فيتيح لي الدخول إلى بعض مكنوناته، وقد كان صعباً ومقفلاً في بعض الأحيان حتى الضجر.

قلت له ذات مرة، بعد أن أصدر ديوانين معاً هما الأخيران له: «من جحيم الكوميديا» و «الرعد الجريح»: ألاحظ، يا دكتور، أنّ سطوة شعرك الأولى التي سبق وعرفناها في دواوينك الكبيرة السابقة، نهر الرماد، والناي والريح، وبيادر الجوع . . . قد خمدت كما يظهر من قصائدك الأخيرة. فإنني لم أجد في جحيم الكوميديا» و «الرعد الجريح»، ذاك المعنى المحرّك للكتابة، وهو معنى الأمل، الذي لمع في قصائدك الأولى كبرق. أين أصبحتَ اليوم؟.

التفت إليّ خليل كملسوع، وقال والكلمات تتسارع في فمه. هل قرأت الصفحة الأولى من جحيم الكوميديا؟

قلت له: نعم. قرأتها.

قال: وماذا وجدت فيها؟.

قلت: قرأت في الصفحة الأولى منها جملة من الكوميديا الإلهية لدانتي، وهي التالية:

«رأيت في أروقة الجحيم بشراً لا يعيشون ولا يموتون».

قال: أتعرف من هم هؤلاء لله الذين ذكرهم دانتي في ملحمته؟.

قلت: لعلك تقصد أنّ دانتي يعنينا نحن. . اليوم، بكلامه.

ولم يتركني خليل حاوي أكمل كلامي. بل اندفع يتكلم بحماس لم أجد له مثيلاً في أي حديث سابق للشاعر. قال: تسألني لماذا مات البريق السابق في أشعاري؟ أليس كذلك؟. أسألك بدوري: هل تعرف من أنت؟ هل تعرف من نحن اليوم؟.

لقد كنت في قصائدي الأولى أغنّي لأملٍ أعتبره كبذرة نائمة في صدر الأمة. كانوا يسمونه «الانبعاث». وأنا كشاعر انبعاث عربي أشعلت وجداني وقصائدي لهذا الأمل. أين هو هذا الأمل اليوم؟

إنه لا شيء. ليس في أي مكان. يتحدثون عن الدورات الحضارية للشعوب والأمم. ما الذي يضمن لنا أن العرب لن ينقرضوا انقراضاً تاماً ونهائياً؟ ومن يضمن لنا كبوتهم ستكون بعدها يقظة؟ هناك أمم قبلهم انقرضت وبادت: الأشوريون، البابليون، الكلدان. . . الفينيقيون. . . وسواهم. . فما الذي يضمن الاستمرار لشعب ينقرض انقراضاً دائباً، ويحترق احتراقاً لا هوادة فيه؟.

ثم أخذ يردد خليل حاوي على مسمعي مقطعاً من قصيدة لأوجين يونسكو (من مسرحيته المغنية الصلعاء). يقول فيه. «النساء على النار.

العيون على النار
الدم اشتعل ناراً
الرمل اشتعل ناراً
الطيور اشتعلت ناراً
السمك اشتعل ناراً
القمر اشتعل ناراً
الرماد اشتعل ناراً
الدخان اشتعل ناراً
النار اشتعلت ناراً
اشتعلت ناراً
اشتعلت
ناراً. . .».
. . . . .

وانتهى لقاؤنا في ذاك اليوم بصمت خاص ثقيل ومخيف شبيه بالصمت أمام الكوارث الكبرى المقبلة، كزلزال، أو طوفان، أو يوم الحشر. وانتحر خليل حاوي، مثل بوذي يحرق نفسه. انتحر بشجاعة. احتجاجاً وقهراً، بمبادرة عنف على الذات، قريبة في بعض معانيها من الفداء والذبيحة في الطقس المسيحي، وكأنه يردد مع السيد المسيح: هذا جسدي فكلوه، وهذا دمي فاشربوه.

وفي كل حال، فقد أثِر عنه قوله، قبل الانتحار، لبعض معارفه، وقد سمع بوصول الجيش الإسرائيلي إلى مشارف

بيروت: أين أخبىء وجهي من الجنود الإسرائيليين؟.

لقد رأى خليل حاوي ما رأى فيئس. يئس تماماً لأنه رأى «فروخ البوم تنبت في ضمير باع ناره» (كما يقول في قصيدة قطار المحطة من مجموعة جحيم الكوميديا) وهو، كشاعر لم يكن ثمة من فروق بين حبره ودمه، وكعنصر صافٍ متوتّر، صادق وثمين في التاريخ العربي المعاصر، كان الدليل الأصلح، على انهيار مرحلة في الثقافة العربية أو انتحارها.

خليل حاوي شاهد وشهيد الثقافة العربية المعاصرة لما بعد الاجتياح الإسرائيلي، في بؤسها. هذه الثقافة التي تشهد أيامها الصعبة السوداء، التي ربما كانت الأسوأ في تاريخها الطويل. إنها ثقافة فاقدة الحيوية من حيث كشف الواقع، كما هي فاقدة الحيوية، من حيث تحريكه، كما هي فاقدة الإثارة من حيث نقده والحوار معه... وهكذا تظهر هذه الثقافة وكأنها ثقافة فاقدةً الأمل بالمستقبل.

لربّما احتجاجاً على مثل هذه الثقافة أو خوفاً منها انتحر خليل حاوي.

ونحن ليس في رغبتنا أن نجعل من خليل حاوي بطلاً شخصياً أسطورياً، تبدأ حياته بحادثة موته. ولكنّ انتحاره في الحقيقة، إشارة شديدة التعبير وذات دلالة ثقافية ليس في الإمكان تجاوزها أو التخفيف من معانيها. ألسنا جيل ثقافة المتاهة أيضاً؟ فهذه الثقافة تفقد وعيها بذاتها. وتعجز عن عقل واقعها وتكوين صورة صحيحة له، من جهة، كما تعجز عن عقل موقعها في هذا الواقع، وأزمتها تصبح في النتيجة، في أنها هامش عرضي معرّض للاحتراق، أو الانتحار... أي كأنما هي ثقافة في غيبوبة.

انتحار خليل كشف تهافت وجه من وجوه الثقافة العربية المعاصرة أيضاً. هذه الثقافة التي مازالت تتلقى (منذ ما سُمّي بعصر النهضة حتى اليوم) إجابات متعددة ومتناحرة عن سؤال جوهري هو: من نحن؟. وإننا لنحسب أن الحروب الصغيرة المندلعة في الجسد العربي، هنا وهناك، فضلاً عن الحروب الأهلية الدموية، مروراً بحروب الغزو الكبرى، والمواجهات مع العدو الإسرائيلي وغيره من الأعداء، ليست سوى شواهد عاصفة على أن الثقافة العربية الراهنة تعاني من الحريق والمتاهة. حتى كأنّ هناك جوقة عميان تتصادم على مسرح محترق، على مرأى من ضد يرى، يعرف، ويسدّد.. وربما كان الضد في الداخل، بل الأكيد هو في الداخل كما هو في الخارج.

إنّ أرض المسرح العربي التي سقط عليها خليل حاوي صريعاً، تظهر مسدودة ومكتنفة بالنار، حيث تُضرب الشعوب أو تنقرض انقراضاً دؤوباً كجثة كبيرة منفوخة وتتهرأ في فلاة...

فالأطراف العربية تُنتهكُ حُرْمتها انتهاكات متوالية حيث تتعرض أجزاء منها لحرب قاسية حتى ولو لاح أمل في جسمها (العراق مثلى..) وأجزاء أخرى هي مقتطعة اغتصاباً (الشريط الحدودي في الجنوب اللبناني والجولان وبعض جزر الخليج) وثمة أجزاء أخرى من الوطن العربي كانت تشكل ثقل الأرض والناس تنتابها الحُمّى من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها (مصر، السودان...). ولا ننس أولاً فلسطين، جوهرة عصرنا المخطوفة. والشاعر ما هو إن لم يكن ضمير الجماعة؟ ضمير أمته ووطنه؟.

لقد كان خليل حاوي هذا الضمير.

ولكنّ خليل حاوي لم يكن هيولي ومعنى مجرّداً بالكاد يلامس أطراف التراب، ويرفّ كالملائكة في السحاب. لقد كان شخصاً من لحم ودمٍ وعصب. ومن رضى وغضب.. بل كان هاوية من جنون وبراءة في آن. تختلط في مزاجه سوداويّة الرغبة بإحباط النَدَم بشعور العظمة. وكان خليل حاوي، على اتساع خياله، ضيّقاً كسُم الخياط، ضجراً حتى من النسمة التي تمرّ فوق أرنبة أنفه الدقيق، وكان دائماً، وحتى في صمته، ترتسم على عينيه المضطربتين وعلى ملامح وجهه العصبي، النحيل، صورة لكلمتين كان يرددهما دائماً: «كيفْ شِكْلْ» لماذا؟ وكيف؟ حتى كأنه مُعترِضَة دائمة بين كلامين. حتى كأنه المشكلة لكل حلّ. وكان لا بدّ لهذا الرجل من أن يتشظّى مثل زجاج. كان لا بد له من أن ينثلم كرمح في حائط.

لـم يكن انتحـار خليل حاوي في فجـر السـادس من حزيران ١٩٨٢ مفاجئاً، لنا نحن الذين عرفنـاه سابقاً بل كان فاجعاً ومدوياً. كان في موازاة انتحار وطن. وما هو الشاعر إن لم تفترش روحـه الأرض والتـراب، وتدخـل أنفاسه في الهواء، ويتجعّد جبينه مع الموج، ويتسنّن أنفه مع ذؤابـات الصخـور، ويتسـرّب دمـه إلـى مياه الآبـار العميقة، حتى إذا ما صوبـت الرصاصـة إلـى الوطـن، سقطت الإصابـة في صدر الشاعـر؟ وفجـر السـادس من حزيران، ١٩٨٢، للذكرى، هو فجر الطيران الإسرائيلي المجنون لبيروت، كانت القوات الإسرائيلي قد اجتاحت الوطن ابتداءً من جنوبه، وقطعـت أوصالـه، ثم أخـذت توجه ضرباتها الموجعة إلى الرأس . . . إلى بيروت.

وكان السقوط يتمّ بصورة مذهلة ومهيبة. كان الوطـن الجميل يُنْحَرُ نحراً من البلعوم إلى القلـب. وكان مشهـد النحر اللبناني المخيف، مستوراً بمشهد آخر على شاشـة العين العربية: مباراة العالم لكرة القدم.

وللذكرى أيضاً نقول، إنه في تلك اللحظـات الرهيبـة بالذات، في تلك اللحظات المـدويَة، امتـدّت يد خليل حاوي العصبية إلى سلاح الصيد في منزله، وصوبته إلى الرأس، وضغطت بقوة على الزناد، فانظر شن دم رأس الشاعر على وجه الوطن العربي كله. وقد جاء في تقـرير الطبيب الشرعي الذي عاين الجنة، أنَ الطلـق النـاري: «دخـل من الـزاوية بين العين اليمنـى والأنف، فعجـز الجمجمة وعظام الجبهة، مما أحدث نزيفاً داخلياً سبب الوفاة. ظووُجِد وشم بارودي. وهذا يدلّ على أن إطلاق النار حصل من مسافـة قريبـة. . وقـد نقلـت الجثـة إلـى مستشفى الجامعة الأميركية. . .» . . . .

ولـكنْ: عن أي شيء يتحـدث هذا التقـرير الطبـي يا ترى؟.

إنـه لا يتحـدث عن الدكتـور خليل حاوي، الشاعـر، ورئيس قسم اللغة العربية في الجامعة الأميركية، وأستاذ الفلسفـة، فليس هو الموصـوف فيه. بل الموصــوف هو الوطن، الوطن هو الذي دخلت فيه الرصاصة، تماماً، من الـزاوية بين العين اليمنـى والأنف، فعجـزت الجمجمـة وعظام الجبهة.

وهو الوطن الذي حصل إطلاق النار عليه، من مسافة قريبة. . وهو الوطن الذي نقلت جثته إلى. . . . .

لنعد إلى قراءة الخبر من أوّله. .

* * *

لقـد أثـار فينا خليل حاوي، في الستينـات، الحنين الأخضر لزمن قادم، أو الحنين الوردي لزمن غابر. وبين هذين الزمنين، كان يومنا (وواقعنا) يتحرك رمادياً. لقـد كانت أشعاره الأولى بالنسبة إلينا، نحن شهود هذه الأمّة. المترهّلة وهذا الزمن العنّين، أشبه ما تكون ببشارة طفل جميل، لرجل هرم بعـد سنـوات اليأس والعقـم. فرح به وحمله حيثما ذهب أو أقام. حتى إذا فقده فجأةً، أخـذه بين يديه بقداسة المعذّبين، شمّهُ للمرة الأخيرة، ودفنه في القبر. ولكنه، قبل أن يهيل عليه التـراب، اقتلـع عينيه المضيئتين، ودفنهما معه.

وسبب حماسنا المبكّر، لقصائد حاوي الأولى، هو أنها كانـت تحمـل لنـا ريـاح الأمـل، ونبض الحياة، وتسقـط لاوعي الانتصار فينا على وعي الهزيمة. . وذلك في حركة استعاد، قد نجدها اليوم فجّة ومراهقة، لشبح الهزيمة أو السقوط: «اخرسي يا بومة تقرع صدري

بومة التاريخ مني ما تريد؟
في شرايين كنوز لا تبيد
إنّ لي جمراً وخمراً
إنّ لي أطفال أترابي
ولي في حبّهم خمر وزادْ
من حصاد الحقل عندي ما كفاني
وكفاني أنّ لي عيد الحصاد
إنّ لي عيداً وعيد
كلما ضوّأ في القرية مصباح جديد. . .»

فنجد في مثل هذا الكلام، سحراً خفيّاً شبيهـاً بالحـذر اللذيذ الذي تبثّه مخدّرات خفيفة، أو ماريغوانـا وطنية، فنغني معه، حين يغنّي:

«يعبرون الجسر في الصبح خفافاً

أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد
من كهوف الشرق
من مستنقع الشرقِ
إلى الشرقِ الجديدْ
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيدْ».

هذا هو سبب الشغف الكبير الذي قرأنا به أشعار خليل حاوي، في الستينات. أما الأساس الكبير الذي لحق بحماسنا، فقد جاء بسبب سقوط الأمل، وارتطام رأس الحلم القومي على أرض الواقع اليابسة. لقد تبيّن لنا (كما تبيّن له أيضاً) أن أشعار خليل حاوي، تحتوي على كمية كبيرة من الإسقاط، تماماً مثلما احتوت على هذه الكمية من الإسقاط، أحلام بعض كبار السياسيين الذين عايشناهم مع حاوي. فجمال عبد الناصر ليس بعيداً عن صورة أحلامنا وفداحة هذه الأحلام. وعبد الناصر ليس بعيداً عن انتحار خليل حاوي.

هذا الإسقاط هو إسقاط الماضي على الحاضر، أو إسقاط المستقبل على الحاضر، وفي كل حال إنه إسقاط الغائب على الشاهد. حتى كأنّ في أشعار خليل حاوي معنى غائباً عرفناه في حماسة الإنبعاثيين جميعاً، سياسيين كانوا أم شعراء ومغنيين، كما عرفنا غروب هؤلاء الانبعاثيين الكبار الحالمين، بفاجعة.

إنّ في هذه الانبعاثية القومية، التي غنّاها خليل حاوي بأشعاره، كما غنّاها الشهداء بدمهم، والسياسيون بنضالهم وشعاراتهم، كمية باهظة من الحلم الأخّاذ.. الحلم الخلاّب، وكميّة موازية من الحلم القاتل.

وكان لا بد لكل هذا الحلم الشاهق من الانتحار. كل حالم أكثر من حدود الأرض انتحاري. وكان لا بد للشاعر، قبل السياسي ومعه، من أن يهجس بأفقه المعكوس.

ذلك ما جمجم به خليل حاوي، حين قال بيأس أخير، أو أوّل:

عمّق الحفرة
يا حفّارْ
عمّقْها
لقاعٍ لاقرارْ.